



بإشراف الشيخ أبي الحسن علي الرضائي

تفريغ دروس جوامع الأخبار

شرح الشيخ محمود الراعوش حفظه الله

المستوى الثاني

الدرس رقم (34)

التاريخ: الاثنين 16/جمادى الآخرة/1441 هـ

10/فبراير (شباط)/2020 م

• ◇ ملخص الدرس:

❁ الحديث (٨٥): أَنَّ ابْنَ عُمَرَ عَلَّمَهُمْ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنْ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ»، وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: «آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» أخرجه مسلم (١٣٤٢).

- ◆ هذا دعاء خاص بالسفر. وهو دعاء عظيم نافع، يعد من جوامع كلامه عليه الصلاة والسلام. وقد اشتمل على كثير من المصالح الدينية والدنيوية بألفاظ يسيرة معدودة.
- ◆ بين فيه ابن عمر رضي الله عنهما: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا) فأفادنا بهذه الجملة ما يأتي:
 - أن هذا الذكر خاص بالسفر.
 - وأن وقته عندما يرتفع المسافر على دابته ويستقر عليها.
 - وأنه يبدأ بالتكبير ثلاثا.
- ◆ ويشرع للمسافر التكبير خلال الطريق كلما ارتفع تواضعا لعظمة الله، ويسبح كلما نزل منزلها الله عن كل نقص، كما ويشرع له أن يختم سفره بالتكبير والتسبيح كما سيأتي.
- ◆ ونقول: "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ":
 - أي ننزه الله عن الحاجة لهذه المراكب، ونحن العباد نحتاج هذه النعمة ولا غنى لنا عنها.

- ونذكر نعمة الله علينا: أي نعترف ونتحدث بنعمة الله أن سخر لنا أنواع المراكب أي ذلها لنا، وما كنا لها مطيقين لولا أن ذلها الله لنا، فالفضل راجع إلى الله وليس لقوتنا.
- فهذا كله يبعث على التواضع لله وترك التعظيم والتكبر عندما نرتفع فوق هذه المراكب.
◆ ونقول: "وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ":

هذا اعتراف بالمعاد، واعتبار بسفر الدنيا على السفر الى الآخرة، فيذكرنا بسفرنا إلى الله فنعترف بالمعاد إلى الدار الآخرة، فإن العاقل يعتبر بالنظير على نظيره! فما أشبه سفر الدنيا بالسفر إلى الآخرة! كما قال تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧]

◆ ونقول: "اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَىٰ" فنسأل الله:

- الْبِرَّ وهو فعل المأمور هنا.
- والتقوى وهي ترك المحظور هنا.
- والعمل الذي يرضاه الله ويتقبله وهو العمل الصالح الخالص لله والموافق لسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

وقد يراد بسؤال البر أيضا: أن نسأله الإحسان إلينا، وهذا حق فإن هذا من معاني اسم الله "البر" بفتح الباء، أي كثير الخير والإحسان.

◆ تنبيه: (البر) مطلقا هو (الطاعة) فيشمل فعل المأمور وترك المحظور، فإن اقترن بالتقوى في سياق واحد فالبر فعل المأمور والتقوى ترك المحظور، لأن لفظي (البر) و (التقوى) من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت، مثل: الإيمان والإسلام.



◆ ونقول: "اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا" فنسأل الله أن يُذهبَ عنا مشقة السفر وعذابه لأن "السفر قطعة من العذاب" متفق عليه، ومن هذه المشاق بُعِدُ المسافات ولذلك نقول: ◆ "وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ": إما بتقصير المسافة حقيقة، أو أن المراد تخفيف مشقته.

◆ ونقول: "اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ" أي اللهم احفظنا فأنت الحافظ ولا حافظ لنا غيرك. فهذا توسل إلى الله بصفاته، وفيه الأُنس به سبحانه من وحشة الطريق، والتوكل عليه.

◆ ونقول: "وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ" وتقدير الكلام: اللهم أنت الصاحب في السفر وانت الخليفة في الأهل، والمعنى لا خليفة لي غيرك. وهذا فيه التوكل عليه وحده سبحانه في حفظ الأهل.

◆ ونقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ" هذه استعاذة بالله من مشقة السفر وآثاره السيئة على المسافر، ومن ذلك "الْوَعْثَاءُ" وهي شدة النصب والمشقة، وأصل "الْوَعْثُ" في اللغة: الأرض الرملية التي تغور فيها الأقدام فيشق المشي فيها كثيرا. ◆ "وَكَاَبَةِ الْمَنْظَرِ" استعاذ بالله من كَاَبَةِ الْمَنْظَرِ ولها معنيان:

- استعاذ بالله من سوء الهيئة والكآبة والحزن الحاصل بسبب السفر.

- وأستعاذ بالله من كل منظر تعقُّبُهُ الكآبة عند النظر إليه.

◆ "وَسَوْءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ": استعاذ بالله من سوء المرجع، وذلك يشمل أن يرجع من سفره وقد أصابه فيه ما يسوؤه، أو أن يجد أمامه ما يسوؤه في ماله وأهله. ◆ قوله: "وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: «آيُّونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»"

أي يقول دعاء السفر المذكور آنفا ويزيد عليه:

- "آيُّونَ": أي راجعون بخير وسلامة إلى الوطن والأهل وهذا من التحدث بنعمة الله.

- "تَائِبُونَ": أي مستمرون على الطاعة، ونتوب من تقصيرنا.

- "عَابِدُونَ": خاضعون متذللون لله وحده.

- "لِرَبِّنَا حَامِدُونَ": أي نحمده وحده على السراء والضراء. لأنه وحده المستحق للحمد، وحده المتفرد بالإنعام، وحده المتفرد بصفات الكمال.

♦ وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول هذه الجملة - «آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» - في المواطن الآتية:

- عند مبتدأ الرجوع من السفر، مقرونة بدعاء السفر كما تقدم.

- على كل مرتفع من الأرض مقرونة بذكر العودة من السفر خلال الطريق، انظر أنظر: البخاري (١٧٩٧، ٢٩٩٤، ٢٩٩٥، ٤١١٦، ٦٣٨٥) مسلم (١٣٤٤).

- عند الاقتراب من الوطن يكرر المسافر هذه الجملة حتى يدخل مدينته أو قريته. البخاري (٣٠٨٥، ٣٠٨٦، ٥٩٦٨، ٦١٨٥) ومسلم (١٣٤٥).

❁ الحديث (٨٦): عن جَابِر بن عبد الله قال: " رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ» أخرجه مسلم (١٢٩٧).

♦ هذا حديث جامع لجميع مناسك الحج، بمعنى أنه يستدل به على مشروعية كل مَنَسَك من مناسك الحج.

♦ قوله: "لتأخذوا" اللام لام الأمر أي خذوا مناسككم، ولا يستدل بهذا الأمر على وجوب كل مَنَسَك؛ ولكن يستدل به على وجوب الاتباع، وعلى مشروعية جميع ما قاله الرسول أو فعله في الحج.

♦ قوله: "مناسككم" جمع "مَنَسِك" بفتح السين وكسرها، وتجمع على "نُسُك" أيضا بضميتين.

◆ قوله: "فَاتِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ" فيه حث على ملازمة الرسول
وأخذ مناسك الحج عنه بعناية شديدة لأنها حجة الوداع.



الدرس الرابع والثلاثون من شرح "جوامع الأخبار"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه، أما بعد..
فهذا هو **الدرس الرابع والثلاثون** من دروس شرح "جوامع الأخبار"، وفيه شرح الأحاديث (٨٥)، (٨٦)..

«شرح الحديث الخامس والثمانين»

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِعْنَا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ [والولد] (*)»، وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: «أَيُّبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» أخرجه مسلم (١٣٤٢) (١)

هذا دعاء السفر، وهو دعاء عظيم نافع من جوامع كلام النبي ﷺ، اشتمل على كثير من مصالح الدين والدنيا، وعلى الاستعاذة من أضرار السفر التي قد تحدث للمسافر في نفسه أو في أهله أو في ماله، واشتمل على التَّقَرُّبِ إلى الله بِذِكْرِهِ والثناءِ عليه، والاعترافِ له بالنعمة وشكره عليها، والتَّبَرُّؤِ من الحول والقوة إلَّا به، وإظهار الانكسار له سبحانه بالتوبة والعبودية، والاعتراف بالمعاد.

فبيّن راوي الحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

1- ليس في لفظ مسلم (والولد).

﴿ أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً ﴾:

أفادنا في هذه الجملة الأمور الآتية:

- أفادنا أن هذا الذكر خاصٌ بالسفر.

- وأفادنا بتوقيت هذا الدعاء وهو إذا استوى على بعيره؛ أي عندما يرتفع على دابّته ويستقرّ عليها.

- وأفادنا أنه عليه الصلاة والسلام يبدأ سفره بالتكبير ثلاثاً فيقول:

(الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر)، أي الله كبير، أو الله أكبر من كل كبير، وأكبر من أن يُحاطَ بكُنْه كبريائه.

والمراد من البدء بالتكبير: تعظيم الله، والتواضع ظاهراً وباطناً لعظمته جل وعز، ولذلك يُشرع التكبير عند تعاظُم شيء، وعند التَّعَجُّب من شيء، وعند الارتفاع على جبل ونحوه، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يفتح سفره بالتكبير والتسبيح، ويختمه بالتكبير والتسبيح، فكان في رجوعه من السفر يُكَبِّرُ إذا ارتفع على كل شَرَفٍ من الأرض، ويسبح إذا نزل، كما ثبت في الصحيحين⁽¹⁾

﴿ وكان عليه السلام يقول في أول سفره أيضاً: "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ" [الزخرف ١٣، ١٤]، استجابة لأمر الله إذ قال: ﴿وَجَعَلْ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) ﴾⁽²⁾

﴿ قوله: "سبحان"؛

هذا اسم فعل مضارع بمعنى أنزّه، فقولنا "سبحان الله" أي أنزّه الله عن كل عيب ونقص.

1- أنظر: البخاري (١٧٩٧، ٢٩٩٤، ٢٩٩٥، ٤١١٦، ٦٣٨٥) مسلم (١٣٤٤).

2- [الزخرف]

ومناسَبة التسبيح عند الركوب هي أننا نُنَزِّه الله عن هذه المراكب، فإن الله غنيٌّ عنها سبحانه وتعالى، ونحن نحتاجها ولا نستغني عنها^(١).

والتسبيح مشروعٌ في السفر؛ في أوله وفي آخره، ومشروع أيضاً عند الركوب في الحضر، وهو دعاء الركوب المعروف (*).

(*) دعاء الركوب هو: «بِسْمِ اللَّهِ» قبل الجلوس على الدابة، ثم بعد الجلوس قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ»، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٤]، ثُمَّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثلاثاً، «اللَّهُ أَكْبَرُ» ثلاثاً، «سُبْحَانَكَ إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»^(٢).

❖ إذن فقولته: "سبحان الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا"؛ أي أنزله الله عن الحاجة لهذه المراكب، ونحن محتاجون لهذا الذي سَخَّرَهُ اللهُ لَنَا وَذَلَّلَهُ لَنَا، لأننا عاجزون عن السفر والترحال وحمل الأثقال بدون هذه المراكب، كما قال تعالى عن هذه الأنعام: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣).

فلله الفضل والمِنَّة أن سَخَّرَ لَنَا هذه المراكب. ولذلك قال ﷺ:

❖ "وما كنا له مقرنين":

أي ما كنا له مطيقين لولا أن سَخَّرَهُ اللهُ لَنَا، أي لا طاقة لنا، ولا قدرة لنا على هذه الأنعام وهذه المراكب لولا أن ذَلَّلَهَا اللهُ لَنَا، فهذه الدواب مُسَخَّرَةٌ لَنَا، ومُذَلَّلَةٌ لَنَا بفضل الله تبارك وتعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾^(٤) فنحن نركب هذه الدواب، ونأكل منها بسبب تذليل الله لها.

1 - انظر شرح رياض الصالحين للعثيمين (٦٠١/٤).

2 - أخرجه أبو داود (٢٦٠٢)، والترمذي (٣٤٤٦) وأحمد (٧٥٣، ٩٣٠، ١٠٥٦) وانظر "الصحيحة" (١٦٥٣).

3 - [النحل: ٧]

4 - [يس: ٧٢]

ألا ترى أنّ هذه الأسود والضّبّاع أصغر حجماً من الجمال والثيران، والخيول والبغال، ومع ذلك لا نقدر عليها، ولا طاقة لنا بها؟! ذلك لأنها لم تُدَلَّلْ لنا.

بل لا يقدر البشر على جرثومة لا يرونها من صغر حجمها، أو جرادة يرونها؛ إذا سلطها الله عليهم!

ثم تأمل هذه المراكب العظيمة العجيبة التي خلقها الله لنا، ودلّلها لنا، ودلّل لنا علم صناعتها، وجعلنا نتحكم بها بكل سهولة، من السيارات الكبيرة والصغيرة على اختلاف وظائفها، والطائرات والقطارات والسفن وغير ذلك، ما كنا لها مطيقين، ولا عليها قادرين؛ لولا أن سخرها الله لنا، قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾^(١)،

وقال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمُسْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)﴾^(٢) فدخل في هذه الآية أنواع المراكب الأخرى التي لم تكن معروفة في الأزمنة القديمة.

وقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۖ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) فشملت "آية النحل" هذه، "آية يس" التي قبلها جميع أنواع المراكب البرية والبحرية والجوية التي خلقها الله بعد زمان الوحي، وهذه تُعدُّ من دلائل صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، فهذه المراكب من عظيم فضل الله على العباد.

ولذلك يجب على العبد أن يُعَظِّمَ الله عند ركوبها بالتكبير والتسبيح والحمد، وأن يتواضع لله وألا يفتخر ولا يتعالى ولا يتكبر إذا علا واستوى فوق هذه المراكب على اختلاف أنواعها، وأن ينظر فيها إلى فضل ربّه عليه، وفقره إليه، وأن يشكره على هذه النعم العظيمة التي حرّمها من هو خير منه. وقد تكبّر أقوامٌ - قديماً وحديثاً - لما ركبوا هذه المراكب، فجعلهم الله عبرةً وآيةً للعالمين.

❖ وقوله: "وإنا إلى ربنا لمنقلبون":

1- [إبراهيم: ٣٢]

2- [يس]

3- [النحل: ٨]

أي إليه راجعون، فنبّه بهذا السفر الدنيوي إلى السفر إلى الآخرة، وهذا فيه اعتراف العبد بالمعاد، وهو ركن من أركان الإيمان.

وفيه اعتبار بالسفر؛ فينبغي على العاقل أن يأخذ من السفر عبرة، وذلك أنّ السفر في الدنيا يُذَكِّرُ بالسفر إلى الآخرة. فالسفر في الدنيا من مكان إلى مكان له بداية وله غاية، وكذلك هذه الحياة، نحن فيها مسافرون، يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، إلى أن نصل إلى غايتنا وهي الدار الآخرة. وكما ينتهي السفر في الدنيا سريعاً، فكذلك هذه الحياة ستنتهي قريباً، وبأسرع مما كنا نظن، كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾

وقد شبّه الله سفر الدنيا بالسفر إلى الآخرة في أكثر من موطن في كتابه، فمن ذلك قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾⁽²⁾ نزلت في أقوام خرجوا إلى السفر من غير زاد توكلوا على الله! وتركوا الأسباب ينافي التوكل، فأمرهم الله عز وجل بالتزود للسفر الدنيوي بالطعام والشراب والراحلة أخذاً بالأسباب، ويبيّن أنّ أفضل زادٍ للسفر إلى الآخرة هو التقوى، ففيه تنبيه إلى السفر إلى الآخرة والتزود له.

❖ قوله: "اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى":

سأل الله البرّ والتقوى والعمل الصالح.

- والمراد بالبرّ هنا فعلُ المأمور،

- والمراد بالتقوى هنا تركُ المحظور.

وذلك أنّ البرّ والتقوى إمّا أن يُذكرَا مُتّصلين أو منفصلين، وهما من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت. أي إذا اجتمعت في سياق واحد في الكلام افترقت في المعنى، فيكون لكل لفظ معنى مختلف عن الآخر، وإذا افترقت وذكر اللفظ منفرداً دخل أحدهما في

1- [المؤمنون: ١١٤]

2- [البقرة: ١٩٧]



معنى الآخر، أي يكون معنى كل من البرِّ والتقوى الطاعة مطلقاً، أي فِعْلُ المأمور وترك المحذور، وفي دعاء السفر هنا اجتماعاً في سياق واحد، ولذلك صار لكل لفظ معنى منفرد^(١).

إذن البرُّ هنا هو "الطاعة" بمعنى "فِعْلُ المأمور"، ويشمل الإحسان في العبادة والإحسان إلى الخلق^(٢).

وقد يُراد بسؤال البرِّ أيضاً: (الإحسان من الله إلينا)^(٣)، فيكون المعنى: اللهم إنا نسألك أن تحسّن إلينا. لأنّ من أسماء الله: (البرُّ) بفتح الباء وتشديد الراء، ومعناه "كثير الخير والإحسان"، وكلا المعنيين حق.

وسأل الله (التقوى): والتقوى مشتقة من (الوقاية)، فهي كل ما يقي من عذاب الله وسخطه، من فِعْلِ المأمور وترك المحذور، والإحسان إلى الخلق. والمراد هنا في دعاء السفر: ترك المحذور، لأنها جاءت مقترنة بالبرِّ كما تقدم تفصيله.

❖ وقوله: **"ومن العمل ما ترضى"**:

سأل الله التوفيق والإعانة على العمل الصالح، ولا يكون العمل صالحاً مقبولاً إلا إذا توفّر فيه شرطان هما الإخلاص والمتابعة. فلا يقبل الله عملاً مهماً كثر وعظم ولا يرضاه إلا بهذين الشرطين كما تعلمون.

فقوله **"ومن العمل ما ترضى"** أي أن يكون خالصاً صواباً، خالصاً لله؛ وصواباً على السنة، حينئذ يكون العمل مرضياً عند الله، فيتقبله ويشكر عليه أضعافاً مضاعفة.

1- انظر "مجموع الفتاوى" لابن تيمية (١٦٥/٧)، و"جامع المسائل" لابن تيمية (٢٢٣/١) طبعة عالم الفوائد المجموعة الثامنة، و"تفسير الفاتحة والبقرة" للعثيمين (٢٩٤/٢)، و"العلم" للعثيمين (٤٤/١)، و"مجموع فتاوى ابن عثيمين" (١١٦/٢٦).

2- تفسير ابن رجب (١٣٤/١).

3- انظر "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" (٢٤٢٠) الملا علي القاري،

و"تحفة الأحوذى في شرح جامع الترمذي" (٢٨٨/٩)، و"البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج" (٣٢٧/٢٤) محمد علي الإتيوبي.



❖ ثم قال: "اللهم هون علينا سفرنا هذا":

في هذه الجملة وما بعدها استعان الرسول عليه الصلاة والسلام بربه على مشاق السفر، وأخطار الطريق. فسأل الله أن يُسهِّلَ هذا السَّفر، أي أن يُذهِبَ مشقَّته وعذابه، لأن السفر قطعة من العذاب، قال ﷺ: "السفر قطعة من العذاب".⁽¹⁾

لأن السفر يمنع المسافر مما أَلِفَهُ واعتاد عليه من نومه وطعامه وشرابه وغير ذلك مما لا بد له منه لتقوية بدنه، ليستعين به على عبادة ربه، ثم ذكر أهم تلك المشاق التي يلاقها المسافر، فقال:

❖ "واطو عنا بعده":

لا شكَّ أنَّ بُعد المسافات من أبرز ما يجلب المشقة والعذاب في السفر، ولا يُسمى التَّنْقُلُ سَفَرًا إلا إذا بَعُدَت المسافة. فيسأل المسافرُ ربه أن يُقَرِّبَ بُعْدَ هذا السفر، أي: أن يُقَصِّرَ المسافة حقيقةً، أو أن المراد تخفيفُ مشقَّته، وذلك بصرف عوائقه في المركوب والصُّحبة، ومخاوف الطريق من وحشٍ أو هامةٍ أو لصٍ... وغير ذلك. وكلا المعنيين مُحتمَل جائر الوقوع، داخل في عموم المعنى، فإنَّ الله على كل شيء قدير.

وقد هوَّن الله - في زماننا - السفر في هذا كله: فأصبح السفر آمناً مريحاً، وأيضاً طُوِيَتْ المسافات بوسائل السفر الحديثة السريعة المعلومة، وهذا كله من فضل الله على العباد، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

❖ ثم قال: "اللهم انت صاحب في السفر":

هذا توسُّلٌ إلى الله بصفاته ليحفظه في سفره.

الصاحب: أي الحافظ والمعين، هذه صُحبة حِفْظٍ ومَعونة، وليست صُحبة ذات كما هو معلوم في معنى المَعِيَّة.

فهذا دعاءٌ عظيمٌ من أعظم ما يقي من أخطار السفر ومشقَّته، ومعناه: اللهم أنت الحافظ من كل مكروه في هذا السفر، ولا حافظ لنا غيرك.

1- أخرجه البخاري (١٨٠٤، ٣٠٠١، ٥٤٢٩) ومسلم (١٩٢٧).

واستفدنا الحصر من قوله: **"أنت الصاحب"**، لأن تعريف طرفي الجملة الإسمية يفيد الحصر. فهذا الدعاء فيه كمال التوكل على الله، وتفويض الأمور إليه، والاكتفاء به عما سواه، وفيه الاستئناس به في السفر، فهذا من معاني الصُّحبة. وفيه التوسل إلى الله بصفاته كما تقدم. ويُشبه هذا الدعاء قوله ﷺ: "...، ربنا صاحبنا وأفضل علينا،..." في دعاء المسافر إذا أسحر(*) أي إذا جاء عليه وقت السحور، كما في صحيح مسلم.

(*) هذه الجملة جزء من دعاء كان يقوله النبي ﷺ إذا أسحر وهو مسافر، أي يقوله وقت السحر في السفر، وتمام الدعاء هو: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ وَأَسْحَرَ يَقُولُ: " سَمِعَ سَامِعٌ بِحَمْدِ اللَّهِ وَحُسْنِ بَلَائِهِ عَلَيْنَا، رَبَّنَا صَاحِبُنَا، وَأَفْضَلُ عَلَيْنَا، عَائِدًا بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ "(1)، قال القاضي عياض: (وقوله: " ربنا صاحبنا وأفضل علينا ": أي احفظنا واكفنا ما يضرنا، وهو معنى حقيقة الصحبة، كما يقال: الله معك) انتهى "(2)

❖ ثم قال: **"والخليفة في الأهل"**:

(الخليفة) في اللغة هو (من يقوم مكان أحد في إصلاح أمره)(3).

وقوله **"والخليفة في الأهل"**:

معطوف على قوله **"اللهم انت الصاحب في السفر"**، فتقدير الكلام: (اللهم أنت الصاحب في السفر وأنت الخليفة في الأهل)، فأفادت هذه الجملة الحصر أيضاً، فالمعنى (لا خليفة لي غيرك). وهذا الحصر فيه كمال التوكل على الله في حفظ أهل المسافر في غيبته وبُعْدِهِ عنهم، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (4)

1- أخرجه مسلم (٢٧١٨)

2- إكمال المعلم: (٢١٩/٨)، وانظر شرح النووي لمعرفة معناه كاملاً.

3- "مرقاة المفاتيح" (٤/ ١٦٨٠).

4- [يوسف: ٦٤]

❖ قوله: "اللهم إني أعوذ بك من وَعْثَاء السفر":

استعاذ النبي عليه السلام في هذه الجملة وما بعدها من آثار السفر على المسافر، فمن ذلك (الْوَعْثَاء): - بفتح الواو وسكون العين وبالثاء المثلثة، وهي شدة النَّصَب والمشقة، وهي مشتقة من (الْوَعْث): - وهي الأرض الرملية التي تسوخ فيها الأرجل فيشق المشي فيها^(١)، واستُعير اللفظ لكل مسير شاق.

❖ قوله: "وكآبة المنظر"، وفي حديث عبد الله بن سرجس رضي الله عنه قال عليه السلام: "وسوء المنظر". أخرجه مسلم (١٣٤٣/٤٢٦).

أي استعاذ بالله من كآبة المنظر ومن سوء المنظر، ويُراد به معنيان:
- المعنى الأول: استعاذ بالله من سوء الهيئة والانكسار والحزن الذي قد يحصل بسبب السفر أو المرض أو الحزن وغير ذلك.

قال ابن فارس: (الكآبة سوء الهيئة والانكسار والحزن).^(٢)

- المعنى الثاني: استعاذ من كل منظر يسبب الكآبة عند النظر إليه، فالمراد هنا المرئي أو المنظور، كما جاء في حديث الكسوف: "فلم أرَ كاليوم منظرًا قطّ"^(٣)، أي المنظور المرئي، قال الطِّيبي مشيراً إلى هذا المعنى: (وقيل المراد منه الاستعاذة من كل منظر تعقبه الكآبة عند النظر إليه) انتهى^(٤).

والمراد أنه استعاذ من المعنيين كليهما.

1- أنظر: "النهاية" لابن الأثير (٢٠٦/٥)، و"معالم السنن" للخطابي (٢٥٨/٢).

2- "مجمّل اللغة" (٧٧٥/١).

3- متفق عليه البخاري (٤٣١، ١٠٥٢، ٥١٩٧)، ومسلم (٩٠٧).

4- "شرح المشكاة" للطِّيبي (١٨٩٣/٦) الحديث: (٢٤٢١).

❖ قوله: "وسوء المنقلب في المال والأهل" (1)

الْمُنْقَلَبُ: الْمَرْجِعُ، فاستعاذ بالله أن يرجع إلى وطنه ويلقى ما يسوؤه في ماله وأهله أو أثناء رجوعه. وجاء في حديث عبد الله بن سرجس قول النبي ﷺ: "وكآبة المنقلب": أي استعاذ بالله من المَرْجِع الذي فيه كآبة، سواء خلال رجوعه أو عند وصوله إلى أهله. قال ابن الأثير في شرح معنى "وكآبة المنقلب": (المعنى أنه يرجع من سفره بأمر يُحْزِنُه، إمَّا أَصَابَه فِي سَفَرِهِ وَإِمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ، مِثْلُ أَنْ يَعُودَ غَيْرَ مَقْضِيٍّ الْحَاجَةِ، أَوْ أَصَابَتْ مَالَهُ آفَةٌ، أَوْ يَقْدَمَ عَلَى أَهْلِهِ فَيَجِدُهُمْ مَرَضَى، أَوْ قَدْ فُقِدَ بَعْضُهُمْ) انتهى (2). فاستعاذ الرسول ﷺ من هذا كله، ومما كان في معناه بهذه الجملة القصيرة.

❖ قوله: "وإذا رجع قالهن":

أي يقول هذا الدعاء عند رجوعه من سفره.

❖ قوله: "وزاد فيهن: آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون":

أي زاد على ما تقدم هذه الجملة في الرجوع من السفر، فهذه الجملة خاصة بالرجوع من السفر. وقالها الرسول ﷺ في ثلاثة مواضع:

- الأول: عند أول الرجوع من السفر مقرونة بدعاء السفر المتقدم.

- الثاني: على كل مرتفع من الأرض خلال رجوعه من السفر، مقرونة بالذكر الآتي: (عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غَزْوٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ يُكَبِّرُ عَلَى كُلِّ شَرْفٍ مِنَ الْأَرْضِ ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا، حَامِدُونَ، صَدَقَ اللَّهُ وَعْدُهُ، وَنَصَرَ عَبْدُهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ). (3)

1 - ولا يوجد لفظ "الولد" في حديث مسلم. والولد داخل في معنى الأهل.

2- "النهاية" (١٣٧/٤).

3- أخرجه البخاري (١٧٩٧، ٢٩٩٥، ٤١١٦، ٦٣٨٥)، ومسلم (١٣٤٤).

- الثالث: عند اقترابه من المدينة كان يكرر هذه الجملة حتى يدخلها: قال أنس بن مالك: (أقبلنا مع النبي ﷺ أنا وأبو طلحة، وصفيّة رديفته على ناقته، حتى إذا كنا بظهر المدينة، قال: «آيُبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»، فلم يزل يقول ذلك حتى قدمنا المدينة⁽¹⁾). فكان الرسول يذكر هذا الذكر في هذه المواطن، لما فيها من التَّعَبُّدِ لله، وذكره والثناء عليه سبحانه.

وأمّا معاني هذه الكلمات بإيجاز:

□ فقولُه "آيُبُونَ" :-

أي راجعون، من (آب) إذا رجع إلى الوطن. والمعنى: نحن راجعون بالسلامة والخير إلى الأهل والوطن، وقد تمّ لهم حجهم أو جهادهم أو عمرتهم، وهذه نعمة عظيمة، فهذا من التحدث بالنعمة المتضمن شكر الله عز وجل، لأن التحدث بنعمة الله من شكر الله.

□ "تَائِبُونَ" :-

من التوبة،

والمراد:- الاستمرار على الطاعة بالنسبة للرسول وغيره، والتوبة من التقصير بالنسبة لغيره. قال الحافظ ابن حجر:

(تائبون فيه إشارة إلى التقصير في العبادة، وقاله ﷺ على سبيل التواضع أو تعلّماً لأمنته، أو المراد أمته كما تقدّم تقريره، وقد تُستعمل التوبة لإرادة الاستمرار على الطاعة فيكون المراد أن لا يقع منهم دُنب) انتهى⁽²⁾.

□ "عَابِدُونَ" :-

1- أخرجه البخاري (٣٠٨٥، ٣٠٨٦، ٥٩٦٨، ٦١٨٥) ومسلم (١٣٤٥).

2- "فتح الباري" لابن حجر (١١/ ١٨٩)، وانظر "تحفة الأحمدي" (٩/ ٢٨٢).

أي خاضعون متذلّلون له وحده سبحانه لا غيره. فالمراد توحيدَه في العبادة، وإظهاراً للتوحيد وإعلاناً له، مخالفةً لأهل الشرك.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يُهلّ بالتوحيد في مواطن كثيرة ويجهر به، فالتوحيد هو أساس الإسلام وباطنه وظاهره. فيُشرع للمسلم أن يُظهر التوحيد في الأذان، وفي الصلاة، وفي العيدين، وفي عرفة، وعلى الصفا والمروة، وعند بداية السفر والرجوع منه، وخلال رجوعه في الطريق، يحرص على تحقيق التوحيد الخالص باطنا وظاهرا، فإنه لب الإسلام وشعاره.

«لربنا حامدون»:

قيل إن كلمة "لربنا" متعلقة بما قبلها، وقيل بما بعدها، وكلُّه صحيح محتمل، فهي متعلقة بما قبلها، وما بعدها.

فإذا تعلّقت بما بعدها فإنها تدلُّ على الحصر، فالمعنى: له الثناء وحده على السراء والضراء لا غيره، لأن تقديم الخبر يفيد الحصر.

فالمعنى أن الحمد ظاهرا وباطنا لله وحده، وعلى كل حال، على السراء والضراء، فهو وحده المستحق للحمد دون غيره، ولأنه وحده المُتفَرِّد بصفات الكمال دون غيره، ولأنه وحده المُتفَرِّد بالإنعام دون غيره. هذا كله من معاني الحمد وأسبابه، ومن معاني حصر الحمد لله وحده.

وقال ابن بطال المالكي رحمه الله في تعليقه على دعاء السفر:

(فيه من الفقه استعمال حمد الله تعالى والإقرار بنعمته، والخضوع له، والثناء عليه عند القدوم من الحج والجهاد على ما وهب من تمام المناسك، وما رزق من النصرة على العدو، والرجوع إلى الوطن سالمين، وكذلك يجب إحداث الحمد لله والشكر له على ما يحدث على عباده من نعمه، فقد رضى من عباده بالإقرار له بالوحدانية، والخضوع له بالربوبية، والحمد والشكر عوضاً مما وهبهم من نعمه تفضلاً عليهم ورحمة لهم. وفي هذا الحديث بيان أن نهيه عليه السلام عن السجع في الدعاء أنه على غير التحريم؛ لوجود السجع في دعائه ودعاء أصحابه، فيحمل أن يكون نهيه عن السجع

يتوجه إلى حسن الدعاء خاصة، خشية أن يشتغل الداعي بطلب الألفاظ وتعديل الأقسام⁽¹⁾ عن إخلاص النية وإفراغ القلب في الدعاء والاجتهاد فيه⁽²⁾ انتهى.



1- قوله: "وتعديل الأقسام": يعني الاشتغال بأقسام الكلام وتنسيقه عن معناه، بأن يقدم هذه الجملة ويؤخر تلك، فإذا وَجَّهَ كل اهتمامه إلى تنسيق اللفظ على حساب المعنى، فهذا هو المكروه في السجع لأنه قد يصرف النية عن الإخلاص. أمَّا السجع الذي لَا يُخِلُّ بالمعنى وَلَا يُفسده فلا بأس به، مع الحرص على الإخلاص.

2- "شرح صحيح البخاري" لابن بطال (٤/ ٤٥٠).

«شرح الحديث السادس والثمانين»

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: **"خذوا عني مناسككم"**. رواه أحمد ومسلم والنسائي⁽¹⁾.

لفظ هذا الحديث عند مسلم هو:

قال جابر: رأيتُ النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ».

هذا حديث جامع لجميع مناسك الحج، فإنه يشمل كل فعل وقول للرسول عليه الصلاة والسلام في الحج، فيُعد هذا الحديث من جوامع كلامه ﷺ.

ويستدل به العلماء على مشروعيتها كل منسك من مناسك الحج. قال النووي رحمه الله: (وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ» فَهَذِهِ اللَّامُ لَامُ الْأَمْرِ وَمَعْنَاهُ خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ وَهَكَذَا وَقَعَ فِي رِوَايَةِ غَيْرِ مُسْلِمٍ، وَتَقْدِيرُهُ: هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي أَتَيْتُ بِهَا فِي حَجَّتِي مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْهَيْئَاتِ هِيَ أُمُورُ الْحَجِّ وَصِفَتُهُ، وَهِيَ مَنَاسِكُكُمْ فَخُذُوهَا عَنِّي وَاقْبَلُوهَا وَاحْفَظُوهَا وَاعْمَلُوا بِهَا وَعَلِّمُوهَا النَّاسَ. وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي مَنَاسِكِ الْحَجِّ، وَهُوَ نَحْوُ قَوْلِهِ ﷺ فِي الصَّلَاةِ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي».

وقوله ﷺ "لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ" فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَوْدِيْعِهِمْ وَإِعْلَامِهِمْ بِقُرْبِ وَفَاتِهِ ﷺ، وَحَثِّهِمْ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنْ مُلَازِمَتِهِ وَتَعَلُّمِ أُمُورِ الدِّينِ، وَبِهَذَا سُمِّيَتْ حَجَّةُ الْوَدَاعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ) انتهى⁽²⁾.

1- أخرجه أحمد (١٤٤١٩، ١٤٩٤٣، ١٤٦١٨، ١٥٠٤١) ومسلم (١٢٩٧)، والنسائي (٣٠٦٢)، وأبو داود (١٩٧٠) وابن ماجه (٣٠٢٣).

2- "شرح النووي على صحيح مسلم" (٤٥/٩).

فبيّن النووي وغيره من العلماء أنّ الأمر في قوله ﷺ "لتأخذوا" هو أمرٌ باتّباع هديه في الحج، وترك الغلوّ والابتداع. ويستفاد من هذا الحديث أيضاً: مشروعية كل ما قاله الرسول ﷺ أو فعله في الحج. وسنوضح هذين الأمرين بعد قليل إن شاء الله..

أمّا قوله (مَناسِك):

مفردتها (مَنَسِك) بالكسر، و (مَنَسَك) بالفتح، ويُجمَع على (نُسُك) بضمّتين و(مَناسِك).

والمَنَسِك في اللغة تُطْلَق على ثلاثة معانٍ:

١- تُطْلَق على أعمال الحج خصوصاً،

٢- وعلى فِعْل العبادة عموماً،

٣- وعلى الذبح.

والمراد هنا؛ المعنى الأول وهو داخل في الثاني وأخص منه. يقال "رجلٌ ناسِك" أي "عابد"، ومن هنا أُخِذَت كلمة "مَنَسِك" في مناسِك الحج لأنها فِعْل عبادة، فكل فِعْلٍ تعبداً يسمى مَنَسَكاً، وكل تركٍ تعبداً يسمى تورّعاً^(١)

ونقف الآن وقفةً يسيرة عند الأمرين المذكورين آنفاً؛ فهذا الحديث اشتمل على فائدتين عظيمتين، أو قلّ أصلين عظيمين:

✻ الفائدة الأولى: وجوب الاتّباع.

لقوله "لتأخذوا" أي خذوا عني. ولو لم يحج الرسول ﷺ لما عرفنا صفة الحجّ، لأنّ الأمر بالحج جاء مُجَمَّلاً في القرآن، وجاء مُجَمَّلاً في قوله ﷺ: " فحجّوا " أخرجه مسلم (١٣٣٧)، فلمّا حجّ عليه الصلاة والسلام عرفنا صفة الحجّ، وهذا ممّا يُبيّن أهمية السنة ومنزلتها في الإسلام.

1- أنظر "النهاية" لابن الأثير (٤٨/٥)، (٦٥/٥).

ومما لا يخفى أنّ العبادة لا تُقبل إلا بشرطين: الإخلاص والاتباع. فلا يجوز لأحد أن يخترع في الحجّ مَنْسَكاً أو ذِكْراً أو طريقة لم تثبت في السنة! فهذه بدعة، لأن البدعة هي: (التَّعَبُّدُ بما لم يكن عليه الرسول ﷺ وأصحابه)، وكل بدعة مردودة.

والغلو من البدع، وقد حذر الرسول ﷺ يوم الرمي من الغُلُوِّ عموماً؛ وفي حصى الرمي خصوصاً، وهو ما أخرجه الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وَهُوَ وَقِفٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ: «هَاتِ الْقُطْ لِي» فَلَقَطْتُ لَهُ حَصِيَّاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ⁽¹⁾، فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِهِ، فَقَالَ: «بَأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ» مَرَّتَيْنِ، وَقَالَ بِيَدِهِ - فَأَشَارَ يَحْيَى أَنَّهُ رَفَعَهَا - وَقَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوْ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ»⁽²⁾.

فتأمل كيف عدّ الرسول ﷺ الزيادة في حجم حصى الرمي غُلُوًّا وأخبر أن مثل هذا الغُلُوُّ أهلك من قبلنا! فما بالكم بالغُلُوِّ في العقيدة وفي أصول العبادات؟! وقد حذر النبي من الغلو في حصى الرمي لأنّ الغُلُوَّ لا يقف عند حدٍّ مُعَيَّن وإن بدا لك صغيراً، فلا يزال الغُلُوُّ يزداد حتى يُحَرِّفَ الدينُ كلّهُ! وهذا ما وقع فيه عباد القبور من الرافضة وغلاة الصوفية، ومن قبلهم اليهود والنصارى وقوم نوح وغيرهم. والمقصود أن الواجب الالتزام بالسنة في الحج وفي غيره من العبادات والحذر من المحدثات.

وقوله "لتأخذوا مناسككم" يشبه قوله ﷺ: "صلوا كما رأيتموني أصلي"⁽³⁾. ويشبه قوله «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»⁽⁴⁾.

1- قال الجوهرى: "وأما الخذف بالخاء فإنه الرمي بالحصى الصغار بأطراف الأصابع، يُقال: خذفه بالحصى خذفاً" تهذيب اللغة: (٢٧٤/٤)

2- أخرجه أحمد (١٨٥١، ٣٢٤٨)، والنسائي (٣٠٥٧، ٣٠٥٩)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وانظر "الصحيحة" للألباني (١٢٨٣، ٢١٤٤)، وأخرج بنحوه مسلم (١٢٨٢).

3- البخاري: (٦٣١، ٦٠٠٨، ٧٢٤٦)، ومسلم (٦٧٤).

4- متفق عليه عن عثمان رضي الله عنه: البخاري (١٥٩، ١٦٤، ١٩٣٤) ومسلم (٢٢٦).

فقد بيّن الرسول ﷺ صفة الوضوء والغسل والصلاة والصيام والزكاة والحج والطواف والسعي والرمي والذبح والجهاد... وجميع العبادات، وأمرنا بالاتباع ونهانا عن الغلو والابتداع. وكان أصحابه رضي الله عنهم أحرص الناس على اتباع سنته، تأمل قول جابر - في حديثه الطويل في صفة حجة النبي عليه الصلاة والسلام، قال جابر: (...، ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ فِي الْعَاشِرَةِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَاجٌ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ، كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِهِ،...) انتهى(1)

أنظر إلى نيّة الصحابة؛ أتوا ليحجوا وليتعلموا السنة في الحج، فهذه فائدة عظيمة تؤخذ من حجة الوداع عموماً، ومن قوله ﷺ: **"لتأخذوا مناسككم"** خصوصاً، ومن هدي الصحابة رضي الله عنهم في اتباع السنة والحرص عليها. فالمراد أن قوله ﷺ **"لتأخذوا مناسككم"** هذا حثٌّ على اتباع السنة.

✻ أمّا الفائدة الثانية:

فقد دلّ الحديث على: (مشروعية جميع ما فعله النبي ﷺ أو قاله في حجّه). (2)
استدلّ العلماء - كما تقدم في كلام النووي - بهذا الحديث على مشروعية الأقوال والأعمال التي صدرت من الرسول ﷺ في حجته.
هذا وجه الاستدلال بالحديث، ولا يُستدلّ به على أنّ كل قول أو عمل أنه واجب! لأن كثيراً من الأعمال والأقوال في الحج ليست واجبة؛ مع أن الرسول ﷺ فعلها أو قالها! ولكن يُعرف الركن من الواجب من المندوب في الحج بأدلة أخرى خاصة بكل مَنْسَك.
فمثلاً؛ قال العلماء: (عرفة رُكن)، ودليله قوله ﷺ: "الحج عرفة". وهكذا قالوا: أركان الحج خمسة: الإحرام، وعرفة، والإفاضة، والسعي، والتحلل بالحلق أو التقصير. وقالوا: واجبات

1- أخرجه مسلم (١٢١٨).

2- أنظر "بهجة قلوب الأبرار" السعدي.

الحج كذا، وسننه كذا، وشروطه كذا.. كل ذلك ثبت بأدلة خاصة بكل مَنْسَك، وليس بعموم هذا الحديث.

وإن كان بعض العلماء قالوا إنّ هذا الحديث يدل على أنّ كل قول وفعل في الحج واجب، لعموم قوله: **"لتأخذوا مناسككم"**، وقالوا ثم يُعرف المندوب بقريضة خاصة صارفة؛ وإلاّ فالأصل الوجوب!

وهذا قول مرجوح، والراجح هو القول الأول، وهو قول أكثر أهل العلم^(١).

هذا والله تعالى أعلم.

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.



1- أنظر "المجموع" للنووي (٢٦٥/٨)، و"منهاج الطالبين" (٩٠/١)، و"الكافي في فقه الإمام أحمد" لابن قدامة (٥٣١/١)، و"شرح السنة" لليغوي (٧/٢٠٣).

أسئلة الدرس الرابع والثلاثين

السؤال الأول: قوله عليه السلام "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ" في دعاء السفر معناه: ننزه الله عن الحاجة لهذه المراكب، ونحن العباد نحتاج هذه النعمة ولا غنى لنا عنها، وأنه لا طاقة لنا بها لولا أن ذللها الله لنا.
الجواب: (صحيح).

السؤال الثاني: قوله: "اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى" فالمراد هنا:-

أ- البر فعل المأمور والتقوى ترك المحذور لأن اللفظين اجتماعا.

ب- كلاهما بنفس المعنى هنا.

ج- البر ترك المحذور والتقوى فعل المأمور.

د- جميع ما ذكر.

الجواب: (أ).

السؤال الثالث: قوله: "اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ" معناه:

أ- أن الله مع المسافر بذاته.

ب- أن الله مع المسافر بحفظه.

ج- كل ما ذكر.

د- لا شيء مما ذكر.

الجواب: (ب).

السؤال الرابع: قوله في دعاء السفر: "وَكَاثِبَةُ الْمُنْظَرِ" معناها:

أ- استعاذ بالله من سوء الهيئة والكآبة والحزن الحاصل بسبب السفر.

ب- واستعاذ بالله من كل منظر تعقُّبُه الكآبة عند النظر إليه.

ج- كل ما ذكر.

د- لا شيء مما ذكر.

الجواب: (ج).

السؤال الخامس: يقول المسافر هذه الجملة - «**أَيُّبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»:

أ- عند أول رجوعه من السفر، مقرونة بدعاء السفر.

ب- على كل مرتفع من الأرض مقرونة بذكر العودة من السفر خلال الطريق.

ج- عند الاقتراب من الوطن يكررها حتى يدخل مدينته أو قريته.

د- كل ما ذكر.

الجواب: (د).

السؤال السادس: قوله عليه السلام: «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ**»:

أ- يستدل به على مشروعية كل مَنْسَك من مناسك الحج.

ب- يستدل بهذا الأمر على وجوب كل مَنْسَك لأن الأمر للوجوب.

ج - كل ما ذكر.

د- لا شيء مما ذكر.

الجواب: (أ).

❁ ... والحمد لله رب العالمين ... ❁

